صورة مدينة في ذاكرة شاعر في المنفى

البصرة.. جنة البستان

يختار مهدي علي مدينة محددة في فترة محددة ليرسم صورتها من الذاكرة، بألوان حلم، تلك هي (البصرة، جنة البستان) في عقد الخمسينيات، زمن الحلم العربي، وهو زمن طفولة الكاتب، من الخامسة الى الرابعة عشرة.

بندر عبد الحميد

صور مضى عليها زهاء اربعين اربعون عاماً، استعادها مهدي محمد علي نثراً مشحوناً بالشعر، وكانت هذه الصور هي الاكثر حضوراً في مجموعاته الشعرية الخمس التي نشرها تباعاً منذ اوائل الثمانينيات، ومع ان الكاتب. الشاعر غادر مدينته منذ ربع قرن، وطوف في الدنيا جنوباً وشمالاً، واستقر في حلب، لأنها تشبه البصرة، بشكل ما، إلا انه يكتب عنها بحواسه وذاكرته، وكأنه يستحضرها بمصباح سحري، ويرسم شوارعها وبيوتها، وأسواقها، ومقاهيها، واضرحتها، وتقاليدها، وشخصياتها المشهورة والمغمورة، ويومياتها، واغانيها، وأحداثها الكبيرة والصغيرة، على السواء، ولا ينقطع الحديث عن النخيل

طفولة مدينة

(البصرة، جنة البستان) مغامرة خاصة، جريئة، تحمل معها مزاوجة مبطنة بين المذكرات والرواية والشعر والحكاية الشعبية وتاريخ البلدان، وأدب الرحلات، وهي مغامرة غنية بالتفاصيل التي تحمل معها اشارة واضحة الى ذاكرة حية، هي ذاكرة الكاتب والمدينة، مسكونة بحنين وحب، لم يحطمها اليأس والخيبة والشعور بخراب العالم من خلال خراب مدينة، او وطن، ويحدد الكاتب في مقدمته المختزلة خصوصية علاقته بموضوعه الاثير فيقول: انها صور مرثية وذكريات، احسست. ومنذ اكثر من عشرين عاماً. بأنها مهما بهتت فانها تتألق بمزيد من العمق، بحيث تصبح معيناً يغتني بالامثلة الانسانية والحضارية، رغم) بساطتها، وربما سذاجتها احياناً. ان هذا الهاجس ظل يتأكد في نفسي بمرور الوقت، قبل الشروع بالكتاب، ومنذ البدء به عام (1982).. وحتى هذه اللحظة بعد انجازه، كما أن العذ الذي احسه في دمي سيستمر في هذا الاتجاه، ذلك ان العالم. كل العالم. يسير بوجهة تحاصر البراءة في الطفولة عموماً، والطفولة في عمر الدن بشكل خاص، وطفولة البصرة.

بالنسبة لي. على نحو اخص. تختلط ذكريات الطفولة وألعابها بذكريات عن قسوة الكبار وجبروتهم، او قدرتهم على الصبر والتحمل والتضحية، وتبدأ هذه الذكريات من البيت، الذي لا يحميه من السقوط إلا الأم.
كانت العائلة تسكن بيتاً في البستان، ولكن الأب بنزواته الغامضة باع البستان واشترى للعائلة بيتاً في حي قديم، وتحرر من المتاعب اليومية، التي تكفلت بها الأم، وصار يختفي لفترات طويلة مدعياً انه يقضي وقته بين العتبات الروحية والزارات، ومضى زمن قبل ان تكتشف العائلة ان الاب يعيش مع زوجة جديدة في بيت بعيد، فقد كان همه الاول انه يجدد شبابه، حتى لو دفع الآخرون ثمناً غالياً.

حنين خاص جداً

اطفال يخترعون ألعابهم بمخيلة خصبة، ويكتشفون شبكات حركة الحياة البسيطة او المعقدة من حولهم في البيت والشارع والسوق وصالة السينما والمقهى والبستان والنهر، ويتعرفون على النماذج الغريبة من الشخصيات المتفردة، بينما تسيطر النساء على حركة الحياة في الحارات القديمة، حيث يغيب الرجال، في عمل متواصل، من عتمة الفجر الى عتمة المساء. في محاولة لاكتشاف الحياة خارج البيت تتوازى صور متحركة لاصدقاء الطفولة والبائعين الظرفاء والأماكن الحميمة التي ترتبط بحكايات وافلام ورموز حب وحنين خاص جداً، تشكل سيرة ذاتية لطفولة مشتركة بين الكاتب والمدينة.

ذاكرة مشتركة

على مساحة ثمانية عشر فصلاً (في ثلاثمائة واربعين صفحة من القطع المتوسط. دار المدى. غلاف محمد سعيد الصكار) يوزع مهدي محمد علي ذكرياته، وينفض الغبار عن شريط طويل من السيرة الذاتية المشتركة مع البصرة، متحرراً من قيود الكتابة التقليدية، حريصاً على توصيل العبارات الشعبية، التي تنثال بالتداعيات الحرة، ليقدم لنا، بشكل غير مباشر، دراسة حية عن طبائع الناس، وجلهم من المغمورين الذين لم ترد اسماؤهم في أي اثر مطبوع، وهم الوجه الاكثر حيوية في مدينة قد نسمع عنها كثيراً في اخبار الماضي والحاضر، ولكننا لا نستطيع اكتشافها في العمق إلا من خلال ذاكرة مشتركة لأحد عشاقها المؤمنين.
بين فصل وآخر يستريح الكاتب، ويقدم قصيدة قصيرة عن اجواء تلك الفترة، في تلك المدينة التي كان يؤرخ لها قبل الطوفان، وقد يحمل لنا هذا التأريخ رثاء فاجعاً، يذكرنا بمرثية ابن الرومي للبصرة في خرابها الأول.
في الفصل الأخير يتوقف الكاتب عند يوم 14/ تموز/ 1958، حيث بدأ زمن آخر، يصحو فيه سكان البصرة على بيانات الثورة، ويخرج كل الناس الى الشوارع مذهولين، لا يعرفون ماذا حدث فعلاً، وماذا سيفعلون، ولكن الفتاة الصغيرة ذات الفستان الابيض، التي داعبت احلام طفولة الكاتب لم تكن بين الجموع المتناثرة في كل الشوارع، ويبدو ان عملية العد العكسي قد بدأت منذ تلك الساعات لتحويل البصرة. جنة البستان، والعراق كله الى نوع من الجحيم الارضي، فمنذ ذلك اليوم، لا أحد يعرف عدد الضحايا والجلادين.

ثقافة تنشر شرورها:

حينما تكون الثقافة اشد عنفاً من سلطتها

محمد ثامر يوسف

حكايات ملعونة كان يتداولها الناس علناً وكنا نسمعها كثيراً أيام التسعينيات الماضية وما بعدها، حكايات شارع متخم بالغرائبيات والاحزان والعجائب والاوجاع لكنها غابت عن دفتي كتاب انساني يتحدث عن مستشفى الامراض العقلية وعن غيره من كتب الثقافة التي قدمت خطاباً فريداً من نوعه على الاطلاق يلائم بالضرورة ويتجاوز ما يريده الحاكم بمسافات وحينما كانت تستبعد وبمقصودية عالية ايا ما من شأنه ان يدين النظام السياسي المؤسساتي او الاجتماعي والانساني المعقد السائد هنا وعلاقاته المتشعبة بالداخل مما يقدم بالتالي دفاعاً آلياً متميزاً ضد اعدائه في ذات الوقت.
هذا التصور من خلال الادب والكتابة لا يقل شأواً عن الطريقة المثلى المطلوبة من خلال عين وحيدة ترقب المكتوب المتماهي اصلاً مع حتمية هذه الرغبات ورؤيتها وخطابها وآليات دفاعها ضد عدوها، مهما كان اي ضد ما تريد وما لا تريد على السواء.
وهذه الرؤية ضد العدو والنظر اليه ووقوف الثقافة ضده لا تتوقف على العدو الخارجي فقط فالعدو واحد حتى ولو كان قطاعاً عريضاً من الشعب نفسه فرواية عجيبة خرجت كالتي يحث عليها الروائي الرئيس، تذهب ابعد في احتمالات العدو وشكله ولونه وذلك حين تصور شعباً كاملاً من العراقيين كالافاعي، واحزاباً وتيارات معروفة بأنهم من الخونة والمارقين واعداء للوطن والمبادئ والقيم.
فتسوغ طهارة خارقة وغريبة غير مألوفة تتبناها الثقافة قبل السلطة..
بل حتى تتفوق عليها في ترويج المصطلح واصطلاحه وتثبيته وهو معنى قد لا تتوصل اليه السلطة نفسها إلا بعد جهد واعادة انتاج للغة وانتهاكها وتشويهها ضد الشعب وثقافته او تلويث تاريخه المقبل ان شئت مادام هذا امشروعاً منظماً لإعادة كتابة تاريخ الاشياء كل الاشياء.
اما التاريخ الماضي القريب فسيتكفل به وسيكتبه لنا منذ الآن الروائيون انفسهم وفق نظرية القياس ورغبة السلطة واهدافها السياسية والحزبية ومما تقدمه ملفات الدفاع والاستخبارات وتقارير الحزبيين، وذلك حينما تستل الثقافة بأصابع ذهبية باردة مادتها ومضامينها هذه المرة وبطريقة مكشوفة من اضابير دوائر المخابرات واجهزة الامن المرسلة الى وزارة الثقافة ومن هنا كان على الروائي ان يختار خطاب روايته المقبلة من احد هذه الملفات شرطاً، اي من هذه الرغبة الدفينة في تعكير الواقع او تفسيره وانتاجه من جديد.. ولهذا خرجت بعد ذلك الكثير من الروايات الايدلوجية او المبطنة للتهيئة والتي تجاوزت وقائعها واحداثها حتى زيف تلك الملفات الامنية واخبار الاسرى والعسكرات والمعارك الملفقة، وسيتوحد هنا التاريخان ولأول مرة، تاريخ الثقافة وتاريخ السلطة الاستبدادية في العراق ليس منذ الآن تحديداً ولكن بالضبط منذ ان طلع علينا ما سمي بأدب الحرب في الثمانينيات وما بعدها وهو الجذر الاول لما حصل بعد ذلك في علاقة الثقافة بالاستبداد وتداعيات ذلك.
هذه الذهنية الثقافية في التماهي مع سطوة النظام السياسي لا تستطع دائماً بطلب انها ايضاً تستدعي نفسها بفعل المأساة النفسية والعقدية لتخلق سلطتها وعنفها مع الترويج للنموذج الكلي الحكمي الراغب بقوة في هذا متمثلة خصوصاً في شخص القائد الوحيد للثقافة والابداع، او مثلما تفرز ظواهرها واشكالياتها الخاصة المتعبة كنوع من الاسقاط الأدبي ولتستكمل نقصان ذاتها المعلقة على قلة المهارة ونصف الابداع السائدة في المناخ العام.
ولعل الشعر في حينه (او شكل الظاهر الملتبس) كان الاكثر تمثلاً لنظام التماثل والتماهي مع هذه المناخات وصولاً لسحق الذائقة وممارسة العنف واستدعاء المواقف بالقوة، فلقد تشكلت الظاهرة الشعرية السلبية الى عنوان دائم لقمع الذائقة والشفافية وتغييب المفاهيم الشعرية الخاصة لصالح ما يريده النظام السياسي وما يحتاجه والشعر لديه (شيء) للدعاية اوقل للدعابة والاستخفاف في احيان كثيرة، ولعل واقعة البركة الخضراء التي اطلع عليها ملايين العراقيين من خلال التلفاز ذات مرة والتي يعرفها جيداً شعراء كثيرون كان لهم (شرف) التجمع في القصر الرئاسي امام الديكتاتور واحدة من اقسى واكثف مقاصد السخرية من الثقافة العراقية، بل هي بصورة اوضح اعلى درجات التماهي والتواطؤ بين الثقافة وسلطتها والتي قد لا تماثلها وقائع أحلك الظروف التي مر بها الشعر والشاعر عبر تاريخه الطويل في حضرة الطغاة وصورة التنكيل هذه التي لا تنسى قامت على المشهد المؤلم الذي أمر فيه الرئيس الجميع بكتابة قصيدة تتغنى ببركة القصر وبمهلة حددها للجميع ريثما يعود بعد ذلك من استراحة لدقائق فيقرأوا له ما كتبوا!
هذه الصورة البليغة النموذجية في علاقة الثقافة المنتكسة بمهووسي سلطتها وبطريقة التعامل والغريبة لم تقدم درساً بمستوى دلالاتة اللاحقة ولم يكن هذا بمستوعب او ذي فائدة كغيره من دروس الانتقاص من القيم الثقافية والاعتبارية ومدلولاتها فلقد ظلت صورة الشاعر المتقدم بأخطاء التذلل واتلاف الصورة وترويج العنف حيناً والسكنة والخنوع حيناً آخر هي الاكثر الحاحاً على المخيلة من صورة الشاعر المتأمل المدرك لأخطار الاشياء وحساسيتها من حولها والاكثر شفافية وحزناً على ما يقع في العراق وما يحصل للانسان فيه من سوء فادحة ذلك ان صورة الرئيس الملهم كانت الصورة الوحيدة في عقل الشاعر وضميره وهي ايضاً صورة مقدسة ومختلفة عند الشاعر الذي لا يريد ان يرى الواقع الكبير الآخر خارج حدود ذاته وستظل العلاقة مع القائد حسب تعبير شاعر مهم ومعروف (عسيرة على الفهم، فللقائد قاموسه الدقيق في توصيف الاشياء حتى كأن علاقته باللغة مثل علاقة الصائغ الماهر بالذهب وطالما فاجأتنا لغته وصوغه لأفكاره) اما عن علاقات القائد بالاشياء الاخرى خارج هذه الحدود ونظرته وتعامله مع تفاصيل ووقائع سود كثيرة حصلت في العراق ومورست ضد انسانه طيلة عقود من الزمن، فهذا موضوع خارج نطاق الشاعر وحساسية الشعر وموقفه الانساني والجمالي منه كما يبدو.
ولهذا اظلت محنة الشعر وقضيته في الداخل العراقي مسألة تتعدى حدود مستوى انتاجه ونقده الى مستوى النظر لمنظومة الشعر وآلياته وعلاقاته بالكامل وما يفرزه بالتالي من تاثيرات حادة في الوسط الانساني تتعلق بهشاشة الذوق وانسانية الشعر المتردية وموقفه مما يحصل. حتى بات الكثيرون في المجتمع ينظرون للشعر بشك وللشاعر بريبة.
والمفارقة المزعجة الاخرى انه في الوقت الذي انفتحت فيه الكتابات النقدية الحديثة على اعادة النظر بتاريخ الشعر العربي والموقف من الشاعر القديم بوصفه دالاً على عقلية مناهضة لغايات الشعر الاساسية وكذلك كونه ذراعاً تعسفية للسلطة والخلافة السياسية والمعبر عن امتيازاتها وطموحاتها التسلطية عن طريق المديح والدعاية، راحت تتسع ومن جديد هنا نماذج معاصرة اكثر عنفاً وسوءاً تبحث عن انماط جديدة لسلوك (شعري) لم يسبق له مثيل بدلالة حقيقية لخراب الروحي الكبير الذي طبع اي علاقة مفترضة مع الشعر وادواته، وهكذا كان على هذه الثقافة ان تكرس كل ما لديها لتهميش العقل وتسفيه الوعي واستغلاله خصوصاً لدى الاجيال الجديدة التي تفتحت على قمع السلطة وجلد السياسة مثلما على دعوة الثقافة للعنف والقتل والتهويل والدعوة للظلامية.
اما كيف حدث هذا؟ فذلك سؤال مربك قد تكون الاجابة عليه غائرة في ذات المثقف والشاعر وعميقاً في تركيبته وتربيته، وبنيته النفسية والاخلاقية، فعلم النفس الاجتماعي يتحدث مرة عن درجة متطورة جداً يسميها (التماهي الحاد) بين الديكتاتور والفرد المقموع، درجة يكون فيها الكائن المقموع جزءاً من ديكتاتور السلطة فيعتبره نموذجه الوحيد الذي يتمنى الوصول اليه وتمثله بالقوة والقمع نفسهما.

عراقيات ابن عباس

وجيه عباس

شددت بحزمتك الاربعين، فطوبى لقوسك ايتها الارض، صاح المغنون "جاوين اهلنا"، فبلل صوتك وقع الخطى، وتندت دموعك تشعل فينا بخور التعاويذ، نحن المخابيل يا امنا، ونزيف القرى جاء اقصى المدينة يسعى باجسادنا الذابلات من الصحو.. اين ابوك وأمك اين الصغار؟ يقولون كان لنا في الرصافة دار، وكان لنا قمر الكرخ أهلاً وجار، هناك القرى حانة، والليالي نديم لعافية الأمس.
دلفت الى بابك القصبي يا وطني، فرأيت الجنوب يؤذن بالنخل، كان الحسين يودع ايتامه حين مر الحجيج ببغداد، فاشتجر الماء، اورق في دجلة الخير إصبعه المستباح فقام الرضيع يهدهد اطفالنا الجائعين، وحين دلفت الى بابك الحجري، رأيت الحسين يسير مع الماء، فاغتسل النهر من جرحه مرتين.
باطراف روحك كنت استبقت الخطى، وجمعت الشظايا، فمن يبصر الجوع يقضم ليلته بالعويل، كنت بين المصلين يا وطني نجمة من دموع، وكانت خدود بنيك سيشربها الصبح، حين مررت رايت الصباحات تفترش العمر، أطلت وقوفك تحت الشبابيك، لا مطر/ والعراجين حبلى، ويعقوب أورثك الارض كي تطعم الخائفين

فقد قميصك من كسرةٍ
فقد اتعب العري هذي العيال
بكى صباحي حين ابصرني
واورق في الجوع ذل السؤال

أما أن للسعف المبتلى ان يقاسمك الطلع لوزدته سمرة ايها البلح المشتهى، كان نخل السماوة يلتف بالسعف، يمطر زمزمه، كلما قال لبيك قال العراق لك الحمد رب البلاد، فما لبني عمّنا او قدوا نارهم حين اطفأها الله في عرفات، وما لبلاد بني عمنا اسرجت خيلها حين كان المؤذن يرفع عند المقام عقيرته. احلوا عن الارض إحرامه، اطفئوا في الصلاة نوافذه، لا إله سوى النفط ترضعه الطائرات ولا مرسل غير هذا العقال..
رأيت بنيك بباب دمشق، وفي السوق، يفتتحون المزاد على قطرة من حياء وكان المرابي يفح باركيلة الماء عطر الفراتين، كان بنوك يقيمون انفسهم للعزاء ببعض دارهم زيّنها الحرف حين تراهن احلامهم في الخيول التي حملت ريحهم خلف هذي البلاد، وحين مررت بكوا وتباكوا، وقالوا رأينا الحسين على رمحه/ كان يرشد شاعركم للحروف التي قد اضاعت وجوه بنيكم، فمن ذبح الناي خطوته، أسلم الريح رايته في المنافي، ومن عقّه الكأس باع اساور ليلى المريضة في الساحة الهاشمية وابتاع

ذاكرة من زجاج.
مددت الى البحر انملتي فأفاق الحنين على شفة الصخر، يا وطنا كلما ابعدته المنافي نجيء اليه كما الموج، خذنا، فقد ابطأت خطونا، وأجرنا اذا ضاق في وجهنا كل هذا السبيل.
ولما رأينا العراق، أهلنا على الرأس طين المشيب، والبسنا الدمع جبّته مقلتين، وقلنا سنوقد في بابك الذكريات لعل الفرات يجيء الرماد فيمطره دجلتين.
أقول دنا البوح يا وطني صام عن احرف القول ربي

وفي الصدر ليلى اذا جئتها هوى
ليس لنا منها سوى تنيلهْ
الا قاتل الله الرغيف بحبها
كأني فيها قاتل وقتيله

"يقولون ليلى في العراق مريضة"
فما للرصافة تغرق اطفالنا في الوداع، وهاقمر الكرخ يطفئه الجوع، يا وطنا كلما امطرته الجنود بكى خضرة في الرمال وقال أفيقوا.
رايت العراق مع الله في الحج، يرمي الملبّين بالورد والآس والياسمين، وكان المؤذن يغري بك الجند، حين مددت وضوءك تشهد ان السبايا حملن من العلف طفل الحجارة يوم اقاموا على الرمح رأسك، وكانت دموع بنيك على الجب،

أماه.. ايقظني القصف، ارضعني الثدي فحمته، والحليب مسيح يُقاد الى الصلب، ذي شفتاي تساقط حبراً سيرسم شاهدتي نخلة، كنت تبكين، فابيض شعري، وطارت حمامات روحك، التفّت الساق بالساق.. وطفلك ما زال يبحث عن ثدي مرضعه في العراق.
- تقول هي الارض تومئ للراحلين "هلي الضيعوني" وليس سوى مقلة، كلما ذرفت دمعها، وجدت لغة عقها النحو، حين عوى الحرف، ألبسه اللحن معطفه بين صوت المغني وطبل المؤذن. اوقفني الظل شاعركم ـ في التماثيل ـ ضميرك مستتر بين عري الثياب" ومنعزل مثل قطرة زيت على الماء" وروحك تبحث عن بلد في الاقاصي لتلصق وجهك بين الغلاف وبين المتون، تجر بقاياك بين الخلود وبين السدود، قناطر يعبرها الحالمون الى الحزن
ـ من طرق الباب سيدتي؟
ـ سواء

فمٌ، لغة، وقافية، رحيل
لسان قاتلْ، ودمٌ قتيلْ
خطاك لها الصدى، وعلى يديها
سرابيل تجر بها الذيولْ
مراياك الحروف فان تهاوت
أيت بها الشظايا تستطيلْ
ستورق في اصابعك المرايا
وتلبس وجه قاتلها الفصولْ

مرآة دمتي ياعراق، رأيتك تحمل زوادتي، فاستجرت بنخلك حين سعى في الطواف وقلت رأيت العراق يساقط سعفته في القطاف/ ليسكن اهلك هذا الجنوب برحم القرى/، فيا بلد الروح، قلبي جواز اليك، ستطفئ عيناك شمعتها، وغيومك تنبش ذاكرة الماء، هل بلدٌ مثل هذا العراق، وأي جنانك قامتها حجم هذا النخيل؟
ـ تقول لنا الشعر!
ـ أي الحروف تلم خطاك وانت تخضب لون الاضاحي بثوب العراق؟
ـ تقول لنا الكأس!
ـ أي القصائد قد اترعتها المذلة خمر الوجوه؟
ـ لنا جنة، وسماواتنا الارض والجسر موعدنا
ـ أي جسر سيعبره العمر يوصله للعراق؟
ـ سنرجع
ـ من قال ان النوارس تهجر ألوانها حين يلبسها الحزن نوح الهديل؟
ـ سلاماً ابانا الذي في العراق سلاماً